رباعيات الذي يأتي ولا يأتي

بقلم خليل سليمان كلفت

تنتهي قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » (*) في جزئها الثامن عشر بتسع رباعيات أشبه ما تكون بتلك القصائد التي تلحق ببعض الروايات او الحركة الاخيرة في العمل الموسيقي التي تلخص الالحان الرئيسية التي تعرض في الحركة الاولى وتطوراتها في الحركتين الثانية والثالثة.

وهذه الرباعيات التي جاءت حتمية في مكانها تأخذ شكلها من طبيعة بطل القصيدة عمر الخيام مؤلف الرباعيات المشهورة ، وهي تذكرنا بجزء اللزومية في قصيدة البياتي الطويلة (محنة ابي العلاء) في ديوان (سفر الفقر والثورة) .

وحتمية الرباعيات في مكانها تنبع من طبيعة الجزء السابع عشر (الصورة والظل) ، ففي هذا الجزء رأينا الامل والشك في صراع متطرف خلق نوعا من الاستحالة « لو جمعت اجزاء هذه الصورة الممزقة » وعلقت كل الامال والنبوءات العظيمة على جواب الشرط الممتنع ولكن هذه الاستحالة ذاتها تعطي أداة الشرط « لو » دفعا قويا يفتت الاستحالة ويقوي الامل الصعب . وأيا كانت الحال فان الصورة الممزقة التي تتحدانا وتتحدى الاجيال التي لم تولد بعد « لو أكل الاباء هذا الحصرم المسموم – لضرس الابناء ... » – تملأ القلب بالمخاوف والشكوك التي لا نخرج منها الى اليقين الا بعد تجربة الرباعيات التي تتلخص التجارب التي خرجنا بها من القصيدة وتضع التأكيدات بقوة بينما تضع المخاوف والشكوك قلقة فوق بركان فيزوف . ومثل هذا الجدل العميق بين التناقضات المتصارعة جدير بأن يجعلنا نتأمل هذا المخاض بثقة عظيمة في الولادة وبخوف عظيم يقوي تلك الثقة ويدعمها ويزيد من حدتها ووضوحها فتبرز منتصرة كلحن دال أخير في هذه الرباعيات التي تكاد ان تكون عملا فنيا كاملا .

وعدد الرباعيات يرمز الى شهور الحمل التسعة ، وسوف نرى ان الايقاع البيولوجي ينتظم الزمن الذي يبدأ بالماضي ثم لا يعود اليه اذ يعبر عن الخروج وينتظم أيضا الصور التي تعبر عن الخروج .

ان هذا الجزء من القصيدة – متسقا في هذا مع الاجزاء السابقة ومع الروح الكلية للقصيدة – يتعامل مع سفر الخروج اكثر مما يتعامل مع سفر التكوين الا انه في بدايته – وهذا على عكس بداية القصيدة في الجزء الاول (صورة على غلاف) – يأخذ لهجة التكوين لدرجة ان الرباعية الاولى تتضمن أربعة أفعال كلها في الماضي ولسوف أعرض الرباعيات واحدة تلو الاخرى لاستنتج منها في النهاية الخصائص التي توفرت فيها :

(١)

باع المسيح دمه للملك الحمار
وانهزم الثوار
وغرق العالم بالاوحال
وسقطت أقنعة المهرجين في وحول العار

(باع) و (انهزم) و (غرق) و (سقطت) : هذه الافعال الماضية تتكلم عن عالم نشأ واكتمل بنيانه ، الا ان مضمون هذه الافعال يرينا ما فيها من قلق يكشف تنافيها مع شروط البقاء وقوانين التطور ، والرباعية تعبر عن تجربة سقوط تنتهي به الهزيمة التي ترتبت على الخيانة ، فالمسيح – الذي يرمز الى الانسان المتأصل الذي يفدي العالم بدمه الذي يتحول الى رافد يغذي خيط النور الذي صنعه نضال الانسان – هذا المسيح يبيع دمه للملك الحمار (يعقد الصفقة التي يبيع بموجبها ضميره للشيطان) وبهذا يخون قضيته الانسانية . وتعبر هذه الرباعية مع الرباعيتين الثانية والثالثة – بوضوح – عن تجربة مريرة مررنا ونمر بها الان : (الخيانة والتخلي ونفض اليد من النضال) وعندما يتخلى سارق النار القديم عن دوره التاريخي تحل الهزيمة وتسقط الاقنعة عن الوجوه المزيفة التي كان يخفيها المهرجون والتي يدمغها العار .

(٢)

أشعلت في فراش حبي النار
تركتني : أهرم في أبوابهم ، أنهار
أحرقتني ، نفختني رماد
ونمت كالثعبان في الجدار

جاءت الرباعية الاولى في شكل الحقيقة التاريخية العلمية ولهذا اصطنعت ضمير الغائب الذي يصور حدثا من الخارج ، ومن هنا نبعت ضرورة الحوار في الرباعية الثانية ، فالحوار هنا في شكل اللوم والتأنيب والتقريع والتعنيف والاتهام ينقلنا الى داخل العالم الفارق في أوحال العار والذي كان يستمد من العار نفسه قلق العجز عن البقاء وضرورة التغيير . والخطاب الموجه الى مسيح الرباعية الاولى يأخذ في البيت الاول نتائج الهزيمة من خلال تجارب عاطفية ذات قيمة تأثيرية معينة ليرينا قبح تلك الخيانة وقبح ذلك الخائن « أشعلت في فراش حبي النار » وما يترتب على هذا من تشريد في المنافي « تركتني : أهرم في أبوابهم ، أنهار » واستعمال الفعل الماضي يعطي كل هذه التجارب مرارة الاحزان التي لا سبيل الى منع وقوعها لانها وقعت بالفعل وبعد ان تكتمل النتائج القبيحة بقوله « أحرقتني ، نفختني رماد » يبصق بالتهمة ويدين « ونمت كالثعبان في الجدار » ، وهذا البيت الاخير يضيف قلقا جديدا ، والشروع الوحيد في الفعل هنا هو النزوع الى تطهير البيت من الثعبان .

(٣)

الكلمات قطع الحبل بها الحفار
فسقطت في عتمة الابار
والبهلوانات على الحبال
ذابوا ، كما يذوب مسخ الليل في النهار

الرجوع هنا الى الغائب يصنع استدارة من شأنها ان تذكرنا بأن مضمون الرباعية الثانية لم يقض على قيام ذلك العالم الدامي الفارق في أوحال العار ، بيد انه تتوفر لنا هنا نتائج القلق الذي وضع من قبل

(*) القسم الثالث والاخير : راجع عددي الاداب يوليه – سبتمبر ١٩٦٦ .

تحت عجز العالم الذي ظن انه قاعد هنا ولن يبرح ، فكلماتهم الزائفة تسقط في العتمة والمهرجون والبهلوانات الزائفون يذوبون ، لا بل « (ذابوا) كما يذوب مسخ الليل في النهار » .

(٤)

لا بد يا سقراط
أن نجد المعنى وأن نمزق القماط
لا بد أن نختار
لا بد أن يسلخ جلد الشاة ، ان يضرب هذا المسخ بالسياط

تبدأ مرحلة الخروج بهذه الرباعية وبركان فيزوف الذي أجلسنا عليه ذلك العالم يثور هنا والاصرار على ضرورة التغيير يتردد « لا بد » ومن المهرجين والبهلوانات والكلمات الساقطة والثوار المهزومين والمسيح البائع دمه للشيطان نخرج الى سقراط الذي يموت في سبيل الانسان ، وباسمه نقسم ، وباسمه نصر على الاخيار وعلى وضع حد للعناء ، وباسمه نستعمل المصدر المؤول ، ولا بد مما ليس منه بد ، ليس كأمل في الهواء ولكن كحقيقة علمية .

والعبث الذي يوجد في عالم الرباعيات الثلاثة الاولى يدفع الى التمرد هنا (لا بد أن نجد المعنى !) والاصرار على التمرد الذي يحث على طلب المعنى والاختيار يخلق لاول مره في الرباعيات فعلين يحملان طبيعة الخروج ، (نمزق) و (يسلخ) وهما يمدان الخط الذي صنعته أفعال الخروج من قبل « يحطمون بيضة النسر » و « يولدون » و « ينبلج النهار » و « امرأة تولد من أضلاع نيسابور » ، وهذه الافعال تحطم وتمزق وتسلخ الجلود .

(٥)

الساسة المحترفون ينجرون خشب التابوت
وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت
منتظرا محروب
تطمرك الثلوج والنجوم والياقوت

في البيت الاول يعود الكلام عن الغائب ليأخذ البيت شكل الحقيقة العلمية وان كان ريتشاردز يعتبر مثل ما في هذا البيت تقريرا كاذبا فهو يفعل هذا لانه يضع القصيدة كلها فوق أداة الشرط « اذا » (نوع من القياس الارسطي : اذا صدقت المقدمات صدقت النتائج) ولكن الحقيقة ان قصيدة البياتي تستخدم أوليات الواقع كأدوات شرط ومن هنا ينبع الحزن الذي يحمله البيت الاول والتحدي الذي يقابل به القارىء اذ ينهي اليه هذه الحقيقة ، لان خشب التابوت الذي ينجره الساسة ليس شيئا بعيدا يسلم هو من خطره ولكنه التابوت الذي سيوضع هو فيه والقارىء هنا امام نوعين من رد الفعل : الاستسلام الماسوكي لمصيره « فليفعلوا بي ما يريدون » أو التنبه واليقظة اللذين يدفعانه الى الفعل في صورة من صوره ، وهنا يجب ان نسجل البرشتية الكامنة بأصالة في هذا البيت وفي القصيدة ككل وهي برشتية في الاثر العام الذي تخلقه لا برشتية في الشكل .

والابيات الثلاثة الاخرى التي ترجع الى شكل الحوار ، فيها التانيب وفيها الرثاء وفيها التحريض النابع من الاولين ، فالخيام اخر أطوار سارق النار كما عرض في القصيدة يقعد في منفاه في انتظاره المزمن « محروبا » « لا يحيا ولا يموت » تطمره الثلوج .

(٦)

لا بد ان نختار
ان نقبض الريح وان ندور الاصفار
أن نجد المعنى وراء عبث الحياة
فالعيش في هذا المدار المغلق انتحار

وهذه الرباعية تعيدنا الى بداية مرحلة الخروج في الرباعية الرابعة : الاصرار على الاختيار ، الاصرار على « أن نجد المعنى » وراء عبث الحياة الذي ندركه من رفدة الاوضاع التي تتنافى مع الطبيعة وعدالة قوانينها في هدوء وسلام ويقين وندركه من تجربة الانتظار ، وعندما يجد الانسان انه « من النظام تتولد الفوضى » كما يقول البياتي في قصيدته (مرثية الى مهرج) في ديوان (سفر الفقر والثورة) يمتلىء قلبه رعبا وشكا ويأسا ولا يصدق شيئا مما يحدث ، وتمرده على كل هذا هو طلبه لمعنى كل هذا العناء العابث ، هذا المدار المغلق الذي يعد قبول العيش فيه قبولا للانتحار ورفضا للحياة ، وثورته على كل هذا هي التي يلح الشاعر في طلبها حتى ولو بلغت استحالة « ان نقبض الريح » و « أن ندور الاصفار » والحقيقة ان هذه العبارة الاخيرة الغريبة ذات قيمة عظيمة تنتج من عموضها العجيب الناتج من لا منطقية المعنى وعدم تحديده .

(٧)

لا بد أن تنهار
روما ، وأن تبعث من هذا الرماد النار
ان تحرق الصاعقة الاشجار
لا بد أن يولد من هذا الجنين الميت الثوار

في الجزء الاول : (صورة على غلاف) نقرأ : « فلتغسل السحابة ـ ادران هذي الارض ، هذي الغابة » و « لتحرق الصاعقة الجسور » وهذه الصور تتولد من صورة كبيرة هي « ولادة اخرى هو الموت » فالولادة الجديدة لا تتم الا باقتلاع جذور الحاضر المتعفن الذي يتحشرج والموت الذي يسبق الولادة يشير الى النطهر من الادران ، والبياتي عندما يقول « ـ وددت لو أغرقت هذا المركب المليء بالجرذان ـ وهذه المدينة الموسة الشمطاء » في الجزء الرابع عشر : (الليل في كل مكان) فهو لا يشير الى أكثر من نفس الفكرة وان جاءت في شكل قد يوحي بالكفر بسبب عنفه .

وتأتي هذه الرباعية بعد رفض ذلك العالم الموحول وتعداد أسباب رفضه ودفع قبوله بتهمة الانتحار ، ومنذ البيت الاول نبدأ المرحلة الثالثة في الرباعيات « لا بد ان تنهار » واختيار روما موفق فهي مدينة العبودية التي بلغت أوج الفساد والانحلال ولكي تقوم لا بد لها من أن تنهار وهذا يذكر بصورة اخرى يضعها الشاعر بجانب صورة روما هي

صدر حديثا :

الأرض يا سلمى

مجموعة قصص بقلم :
محمد عبد الولي

اول مجموعة قصص يمنية تصور المجتمع اليمني وترهص بثورته المجيدة

دار الاداب

صورة رماد العنقاء ويقين النار التي تنتظر من رماد العنقاء يعطي يقينا مماثلا للانبعاث الذي ينطلق من انهيار روما وتتكامل الصورة بالبيت الرابع في الرباعية « لا بد ان يولد من هذا الجنين الميت الثوار » .

(٨)

نعود ، من يدري ، ولا نعود
لامنا الارض التي تحمل في أحشائها جنين هذا الامل المنشود
وعمق هذا الحزن والوعود
تحوم حول نارنا فراشة الوجود

ذلك الجنين الميت الذي ننتظر منه الثوار ليس ميتا الا بالمعنى الاكلينكي (التشخيصي) للموت فهو في أحشاء أمنا الارض التي تحمله أملا منشودا عظيما ، ومن عمق الحزن ينبع عمق الوعود والانسان الذي كان « يحوم حول سوره عريان » « فاكهة محرمة » في الجزء الثالث عشر : (الوريث) « تحوم ـ (الان) ـ حول ناره فراشة الوجود » التي تحترق فيه فيبلغ وجوده الحقيقي ، وهذه الرباعية امتداد للرباعية السابعة في الاشارة الى طريق الخروج باحتراق الواقع المرفوض ، والجدل بين « نعود » و « لا نعود » هو جوهر الصراع بين اليقين والشك الذي يرفع ثانيهما في تأكيدات جنين الامل المنشود الذي يبشر كما تبشر أسنان التنين التي سقطت وتناثرت لينبت منها جيل من العمالقة في الاسطورة اليونانية .

(٩)

الميت الحي بلازاد ولا معاد
ينفخ في الرماد
لعل نيسابور
تخلع كالحية ثوب حزنها وتكسر الاصفاد

وفي البيتين الاخيرين لا نجد الترجي كما في الشكل الخارجي « لعل » ولكن اليقين الذي تملأنا به التأكيدات فها هو الانسان في صورة الخيام ميت حي ، يعيش ولا يعيش ـ كما يقول توماس بيكيت لنساء كانتربري ـ لا زاد له في انتظاره ولا معاد ولكنه ينفخ في رماد العنقاء وهنا يشير الى نوع الخروج الذي تشير اليه مرحلة الرباعيات الثلاثة الاخيرة .

ولنخرج ببعض النتائج :

عالم الرباعيات يشتمل على مراحل ثلاث :

الاولى : عالم التكوين الفاسد الذي صورته الرباعيات الثلاثة الاولى وهو يتميز بأفعال الماضي التي تصف عالما مكتملا ثم يتميز ثانيا بالعبث الذي ندركه من طبيعة بناء ذلك العالم ثم يتميز ثالثا بما ينتج عن هذا العبث من ادراك فلقه وعدم استقراره وهذا ندركه من طبيعة الافعال كما وضحت من قبل وهو يتميز رابعا بالخلو من صور الخروج الذي لا يوفره غير فلق ذلك العالم وجلوسه فوق بركان ثائر ندرك أنه سوف يعصف به ذات يوم كما عصف ببومبى من قبل .

الثانية : (مرحلة الرباعيات الثلاثة الثانية) هي مرحلة الخروج وضروريه والحاحه ، مرحلة الاختيار والبحث عن المعنى بعد ادانة الواقع واتهام قبول الحياة فيه بأنه انتحار وفي هذه المرحلة تموت أفعال الماضي، حتى الالام تأخذ صفة الحضور والاستمرار « ينجزون » وتتميز هذه المرحلة ثالثا بكثرة صور الخروج (القماط الذي يمزق) و (الجلد الذي يسلخ) وهي تتميز رابعا بعدم وجود طريق للخروج وبأن الاصرار عليه يحث على البحث عن تلك الطريق ولكنه لا يسميها .

الثالثة : (مرحلة الرباعيات الثلاث الثالثة والاخيرة) وهي تشترك مع الثانية في ضرورة الخروج وانعدام الفعل الماضي اولا وثانيا وتشترك معها ثالثا في صور الخروج « الجنين » و « تخلع كالحية ثوب حزنها » ولكنها تتميز في الخاصة الرابعة فهي تقدم ـ كما يفعل أي عمل فني تقدمي بماهيته ـ طريق الخروج ، فتربط الغاية بالوسيلة ، فليس الخروج غيبا ننتظره ولا نصنع من اجله شيئا بل ان الطريق اليه لا يكون الا باقتلاع الاشجار المرة المريضة من جذورها والعصف بكل أمراض الواقع حتى تخرج نيسابور الجديدة وحتى لا تعتبر الشعوب من التوابيب التي ينجزها الساسة المحترفون

القاهرة

خليل سليمان كلفت

دار الاداب تقدم

الطبعة الثانية من

الرواية العالمية الرائعة

زوربا

تأليف الكاتب اليوناني الكبير

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة جورج طرابيشي

رواية مدهشة تنبض بالحياة وتمزج الاحداث المشوقة بفلسفة عميقة تثير التأمل والمتعة . وقد اتيح للمواطنين العرب حديثا ان يروا هذه الرواية على الشاشة البيضاء تحت عنوان « زوربا اليوناني » . وهذا الشهر تصدر الطبعة الثانية من هذه الرواية ، ولم يمض على صدور الطبعة الاولى اكثر من اربعة اشهر !

الثمن ٥ ل.ل